بنية النص : نسق الثقافة

حسين خمري
- جامعة وهران

مفهوم النص نشأته شأن الأدب مفهوم غامض وتمر عليه الدراسات النقدية لذا نظرية الأدب التقليدية دون الوقوف عند تعريفه تعريفاً دقيقاً وكأنه من المسلمات . وصار يقترن في «ذهن القارئ والمثقف عموماً» بمجموعة من الجمل التي تتراوح في الطول والقصر لتبلغ معنى من المعاني .

وكمسلمة نظرية نقول إن النص شكل لغوي يبلغ رسالة معينة ويعمل على ربط التواصل بين القارئ (أو مجموعة من القراء) والكاتب سواء كان ذلك كتابياً أو مشافهة . ونجد أن مفهوم النص قد استعارت ، أنماط التواصل الأخرى فنجد النص الموسيقي والنص المسرحي والنص الكلاسيكي التشكيلي الى غير ذلك . وهذا المفهوم يقترب من مفهوم الشكل تارة ومفهوم المضمون أخرى .

وإذا عدنا الى كتب نظرية الأدب التقليدية وبخاصة عند أرسطو إنما نجده يقترب من مفهوم الشكل ويشبه النص المتناسق الأطراف كالحيوان الجميل «الذي تكون به بداية (رأس) أي الذي لم يسبق بشيء ؛ وله وسط ، أي ما كان مسبوقاً بشيء ويأتي بعده شيء آخر (ويتقابل عند الحيوان الجذع والأطراف) وله نهاية أي ما كان قبله شيء وليس وبعده شيء [1450ب + 1451أ] .

ونجد أن البلاغة العربية التقليدية قد تحسست هذا البناء للنص ولكنها لم تصغه صياغة نظرية شكلية رغم استفادتها من نظرية أرسطو التي طبقتها على النصوص العربية وقد استعملت مصطلحات مثل حسن الابتداء وربطها بالسياق النفسي الاجتماعي للمتلقي قصد التأثير فيه وكذا مصطلح حسن التضلع أي طريقة الانتقال من موضوع الى آخر أو من ثيمة الى أخرى ، أي ما يمكن أن يسمى أجزاء المضمون وترتيب مواده ، وحسن الإنتهاء أي العناية بالنهاية لأنها آخر ما يقرع سمع المتلقي وما يمكن أن يبقى في ذاكرته .

واذا ما عدنا الى كتب التراث فإننا نرى ان هذا المصطلح قد اكتسب خصائص عملية وراج كثيراً في بيئة الأصوليين وعلم الكلام وظهرت بشأنه تيارات كثيرة في علم التأويل خاصة ونجده عند الحنابلة قد ارتبط بالظاهر ودوام المعنى واستقراره وعند غيرهم نجد أنه يقترب من فهمنا المعاصر .

نجد أبا حامد الغزالي في كتابه «المنخدل» (تحقيق حسن هيتو) يقدم وجهة نظره ومفهوم النص وينقد فهم الشافعي لهذا المصطلح يقول أبو حامد «فأما ألفاظ القرآن فتنقسم الى ما يقطع بفحواه وهو **النص** والى ما يظهر معناه مع احتمال وهو **الظاهر** (ص146) .

أما النص : فقيل إنه اللفظ المفيد الذي لا يتطرق إليه احتمال ، وقيل هو اللفظ الذي يستوي ظاهره وباطنه . ولا يرد عليه الفحوى المفهوم على القطع . وإن كان لا يسمى نصاً ، فهو مفهوم النص وفائدته ، فلا يسمى نصاً .

وأما الشافعي : رضي الله عنه فإنه سمى الظاهر نصا ثم قال النص ينقسم الى ما يقبل التأويل ، والى ما لا يقبله .

والمختار عندنا أن يكون النص ما لا يتطرق إليه التأويل على ما سيأتي شروط التأويل (ص165) .

وتسمية الظاهر نصاً منطلق على اللغة ، لا مانع في الشرع منه ، إذ معنى النص قريب من الظهور .

تقول العرب نصت الظبية إذا شالت رأسها وظهرت وسمي الكرسي منصة ، إذ تظهر عليه العروس .

ولو شرط في النص انسجام الاحتمالات البعيدة . كما قال بعض أصحابنا فلا يتصور لفظ صريح (ص166) .

وأما الظاهر : قال الأستاذ أبو اسحاق : هو المجاز والنص هو الحقيقة .

ورت مجاز هو نص كقوله : القول منصرمة ...

بالوجه أن يقال : الظاهر ما يغلب على الظن فهم منه معنى في قطع (ص166) .

واذا ما عدنا الى تعريف وتحليل أبي حامد الغزالي نرى أنه في البداية يشدد على التعارض بين النص والظاهر انطلاقاً من معاينة دقيقة لألفاظ القرآن الكريم ، فالنص ما كان ذا طبيعة قطعية لا تقبل الاحتمال أما الظاهر فإنه يفتح المجال أمام التأويل والتكييف قصد القبض على المعنى المتضمن ودلالته ووظيفته .

بعد ذلك يؤكد أبو حامد على طبيعة النص القطعية ، ثم بعد ذلك رأيا في هذا الصدد دون أن يذكر مصادره ولا أهم ممثليه ، وهذا الرأي يحاول أن يعادل بين الظاهر والباطن كشرط لتحقيق مفهوم النص ثم بعد ذلك يورد الغزالي موقف الشافعي من هذا المفهوم (النص) وبعد عرضه لرأي الإمام الشافعي يحدد موقفه (والمختار عندنا ..) ويرى أن ظاهر النص يمثل المظهر اللغوي النشاط المؤول الذي يقول عنه سالم حميش ما يلي : «إن - الرجوع الساذج الى الظاهر - الذي ليس مجرد قشرة أو غلاف خارجي عمل شاق ومضني ، ذلك أن الأمر يتعلق بإعادة تركيب شريحة اللغة العربية من خلال سماكتها ومتنها وبواسطة بيانها وبلاغتها ، كما أنه يكمن في الإقامة بعيداً عن كل اعتبار للفواصل الزمانية بيننا وبينها» (ص39) .

وبعد أن يؤكد أبو حامد الغزالي على المظهر اللغوي لظاهر النص وكتسلسل منطقي يعطي الأصل اللغوي لمادة نص وهذا التعريف يبدو مقتضباً ونورد هذا بنوع من التوسع نأخذه عن كتابة المستصفي وفي الجزء الأول منه عندما يقول : النص اسم مشترك يطلق في تعارف العلماء على ثلاثة أوجه :

الأول ما أطلقه الشافعي رحمه الله فإنه سمى الظاهر نصاً وهو منطبق على اللغة ولا مانع مه في الشرع . والنص في اللغة بمعنى الظهور تقول العرب نصّت الظبية رأسها إذا رفعته واظهرته ويسمى الكرسي منصة إذ تظهر عليه العروس !؟.

وبعده يورد أبو حامد رأي الأستاذ أبي إسحاق الذي يقول بتطابق النص مع الحقيقة ، وهذا الموقف يفسره سالم حميش بقوله تنزع الظاهرية الى أن تكون منهج قراءة وفهم للنصوص ، وتهتم بتخليص الاجتهاد من كوابيس الباطن وصهره في المعنى الحرفي الظاهر للنص وهذا المعن ليس ميسوراً ولا رهن إشارتنا (ص36) ودائماً على مستوى القراءة والتلقي نلاحظ النظرية الحديثة واعتماداً على السيميائيات ، وبالضبط على نظرية الدلالات الحافة conrotations فإنها أكدت على تجاوز النص الأدبي المدلول الواحد الى تعدد المداليل (أي المعنى ومعنى المعنى أو المعاني الأول والمعاني الثواني حسب تعبير عبد القاهر الجرجاني) ، ولهذا الفهم جذور ترتبط بفكرة اعتبار النص كرمز يعمل عن منظومة رمزية وبالتالي فإنه يقدم مستويين من التلقي المستوى الظاهري أي نسق الرموز اللغوية وتعالقها (المظهر التركيبي) وهذا يتطلب تأويلاً وفهماً ، وهذا المستوى يتجلى خاصة في (المظهر الدلالي ولابراز هذين المستويين وتعالقهما يتعين البحث في خضائص النص الأدبي وهذه الخصائص نظرية يمكن معاينتها بدرجات متفاوتة في كل النصوص الأدبية .

أ/ الخاصية التنظيمية : وهي اعتبار النص شكلاً وإطاراً تنتظم فيه المواد التعبيرية والجمالية ، وتتجلى في المظهر اللغوي (النحو القواعدي) أي تنتظم (نظم ؟) الرموز اللغوية وفق نسق معلوم لتأدية معنى معين ، وفي هذا المظهر تبدو وظيفة النحو (أي التركيب) أساسية لأن العلامات اللغوية لا يستقيم نظمها إلا بإحترام قواعد النحو (عبد القاهر الجرجاني) إضافة الى هذا فإن النص الأدبي يعمل على تنظيم المواد الجمالية (النحو الثاني البلاغي) وتوزيع عناصر الجمال على مساحة النص ولا تقوم هذه الخاصية بوظيفتها ما لم يكن صاحب النص متمكناً من قواعد الكتابة الأدبية ومتعمقاً في أساليبها وتقاليدها .

الخاصية التنظيمية على مستوى المضمون تتعلق بترتيب مواد العمل الأدبي (مضامين) وكيف تتعلق فيما بينها وكيف يتدرج في تطوير مضامين النص وطريقة تلاحم هذه المضامين خلال نصوص مختلفة وما هي وظائف .

ب/ قيمة حضارية/ثقافية : كل نص يتمتع بأدبية حقيقية يمثل موقفاً من الثقافة والنصوص السابقة . أي من التاريخ والحضارة لأنه يعمل على تغيير فهمنا للنصوص السابقة أو الحاضرة وذلك من خلال القيم النصية التي يقدمها والدليل على ذلك وجود بعض النصوص التي يؤرخ بها للأدب والثقافة بصفة عامة : مثل المعلقات والنقائض والخمريات والمقامات . كما أن النص الذي تتوفر فيه هذه المواصفات يمدنا بنماذج لإنتاج نصوص أخرى .

جـ/ خاصية الإنتقال mouvance : إن أي نص يعجز عن الإنتقال داخل الثقافة عن طريق القراءة والفهم والحفظ والدراسة والنقد يعتبر نصاً ميتاً لأن هذه الخاصية هي التي تجعل من النص ذاكرة ثقافية وجزءاً من الهوية الحضارية .

إن خاصية الإنتقال هذه قد تتعدى النموذج الثقافي الأصلي الى نموذج مختلف سواء عن طريق الترجمة والاقتباس وبالتالي فإنه يحيا حياة جديدة داخل سياق حضاري وثقافي جديد ويصير مجالاً جديداً لعمليات نقدية مختلفة ومقاربات متنوعة .

د/السلطة : كل نص يتمتع بالخصائص المذكورة آنفاً : التنظيمية - القيمية الانتقال والحركية يتحول الى سلطة معرفية أي يقدم مجموعة من المعارف المبنية على تجارب فنية إنسانية والى سلطة ثقافية أي أن يكرس مجموعة من القيم الثقافية ويدعمها ، كما أن هذا النص يصير سلطة جمالية أي نموذجاً فنياً يحتذى به وذلك من خلال القيم الجمالية والفنية التي يقترحها .

هـ/تضمن القائل : النص الأدبي يتضمن صورة أو عنصراً من عناصر هذه الصورة عن ذاتية القائل وذلك بواسطة الصور والخيالات أي أن شفرة code كل قائل تختلف عنها عند آخر ،

وهي تشبه الملامح الخاصة لكل قائل ، وهذا الاختلاف يرتبط بثقافة القائل ووضعه الاجتماعي والشرط الحضاري والتاريخي الذي يوجد فيه .

إن هذه الخاصية ترتبط بجانب آخر من طبيعة النص الأدبي هي كونه يتوجه الى قارئ متعدد بصيغة الجمع pluriel إن هذه الطبيعة المزدوجة (الذاتية/تعددية التلقي) ترتبط بتعددية المستويات التي يقدمها النص واختلافها وتنوعها وهذا ما يجعل منه موضوعاً إشكالياً- وهذا جزء من طبيعته لأنه يقترح أسئلة ولا يقدم أجوبة أي يطرح مجموعة من الرؤى الجديدة تساعد على تناول الواقع وفهمه ، والدليل على ذلك أن النماذج النصية - القديمة (المعلقات ، النقائض ، الخمريات ، الزهديات ، المقامات ...) لا زالت تطرح علينا أسئلة ثقافية وحضارية وجمالية وتطالبنا عند كل قراءة بمحاولة الاجابة عن الأسئلة الجديدة والمتجددة مع كل قراءة ، ونقول محاولة الإجابة لأنه لن تكون هناك إجابة قاطعة ونهائية بصدد سؤال معين يطرحه نص محدد : وذلك لأن هذا «النص» لا يلغي النصوص السابقة ولكن يضيف إليها .

وهذا عكس النص العلمي الذي يقدم أجوبة الاشكاليات يطرحها الواقع الفيزيقي (الأمبريقي) أو يفترضها وذلك من وجهة نظر علمية موضوعية وحيادية ، كما أن النظريات العلمية تتحدد بإلغاء اللاحق للسابق عندما يكتشف زيفه أو بطلانه أو تناقضاته ، ويتميز النص العلمي بتجاهله المتلقي ويحاول قدر الإمتحان إلغاء الذات المتكلمة التي تتحول الى صوت جماعي أي الى سلطة علمية أو سلطة تجريبية تخضع لملابسات المخبر وأدوات التحليل .

إن ذاتية النص الأدبي - أي تمركز الذات القائلة داخل النص - تجعل النص يعكس اعتراضات القارئ وأحكامه ووجهات نظره وتعدد مراكز الثقل وهذا عكس النص العلمي الذي يقدم معنى واحد ووحيداً لا يقبل التأويل ، لا يقدم إلا مستوى واحداً من القراءة والفهم شريطة امتلاك نفس الشفرة العلمية والتمتع بنفس النظام العقلي والشروط المعرفية .

للنص سياقات :

1 - سياق داخلي أي العلاقة بين الوحدات النصية وتراتبية العناصر الداخلية وعلاقة الأجزاء فيما بينها ثم علاقتها بالبنية الكلية للنص الأدبي (التناول - النحوي - الصرفي) .

2 - سياق خارجي أي علاقة النص بمراجعه الخارجية (التناول الدلالي) سواء كانت هذه المراجع ثقافية أم اجتماعية أم تاريخية وعلاقة نص معين بنصوص أخرى ، أي ارتباط النص بسياق حضاري أشمل .

للنص نحوان :

1 – النحو القواعدي أي المعيار النطي اللساني وهو ما يمثل مجموع القواعد التي تضبط العلاقات بين الكلمات وبين الجمل لتعطيها معنى معين ودلالة محددة من خلال مجموعة من العلاقات الشكلية (البنوية) التي تتحكم في اللغة وبدون هذه النحو يصير الكلام عبارة عن هذيان .

2 – النحو الثاني ويمثل المعيار البلاغي في تعالقه مع المعيار القواعدي والانتقال من النحو الأول الى النحو الثاني ولكل أدبية نص معين وقد أوضح هنريس بليت هذا التعالق بين النحويين في كتابه «البلاغة والأسلوبية» عندما قال : ويجب أن تحدد السلسلة التي تمثل درجة الصفر من طرف المعيار النحوي للغة الطبيعة ، ففي مقابل هذه الدرجة ينشأ نحو ثان يصف مختلف امكانيات التغير وهذا النحو الثاني هو بدوره معيار وموضوعه وصف بلاغية الدليل اللساني على المستوى السيميو – تركيب ... وتعمل أنماط العمليات اللسانية حينئذ كأنماط تحويلية إنها تحول المعيار اللساني الأولي (النحوية) من بعض المواقع من النص الى معيار ثانوي (البلاغة) (ص42 – 43) .

حـ/النص واللا – نص :

إن اللا – نص لا يمكن تعريفه إلا في تعارضه وتقابله مع طبيعة وخصائص ووظائف النص لأن اللا – نص يتوجه الى متقبل/مرسل إليه محدد في ظروف حضارية وتاريخية مخصوصة مثل الرسالة التي يرسلها صديق الى صديقه أو إنسان الى مؤسسة إدارية أو خطبة سياسية أو حديث إيديولوجي أو خطاب تاريخي ومثل النصوص الاعلامية أو نصوص الدعاية والإشهار وأشكال التواصل اليومي . وهذه النصوص وغيرها ، كثير هي عبارة عن نصوص ترتبط بلحظة معينة وتفقد مبررات وجودها في زمن غير زمنها ، وهذا النوع من النصوص يتساوى فيه الدال الواحد مع المدلول الواحد والمحدد الذي يهدف الى إيصال رسالة معينة بوضوح واقتصاد مع التركيز على الوظيفة النزوعية/التأثيرية كما حددها جاكبسون ، وبصدد الحديث عن خصائص اللا – نص ووظائفه يجب التنبيه الى أن الثقافة كمنظومة من القيم الفكرية والروحية والحضارية والجمالية هي التي تحدد طبيعة النص واللا – نص لأن لكل ثقافة نصوصاً تعمل كنماذج الى جانب عدد لا يحصى من اللا – نصوص التي تعمل خلفية ثقافية للنصوص الأدبية .

هوامش

– أبو حامد الغزالي : «المنخول» تحقيق حسن هيتو ، دار الفكر ، بيروت .
– سالم حميش : «حول طبائع النص القطعي في الإسلام» دراسات عربية ع1987/2 ، بيروت .
– أبو حامد الغزالي : «المستصفى/الجزء الأول» مكتبة المثنى ، بغداد 1322هـ .
– هـ/بليت : «البلاغة والأسلوبية» تـ/محمد العمري ، منشورات سال 1989 ، المغرب .